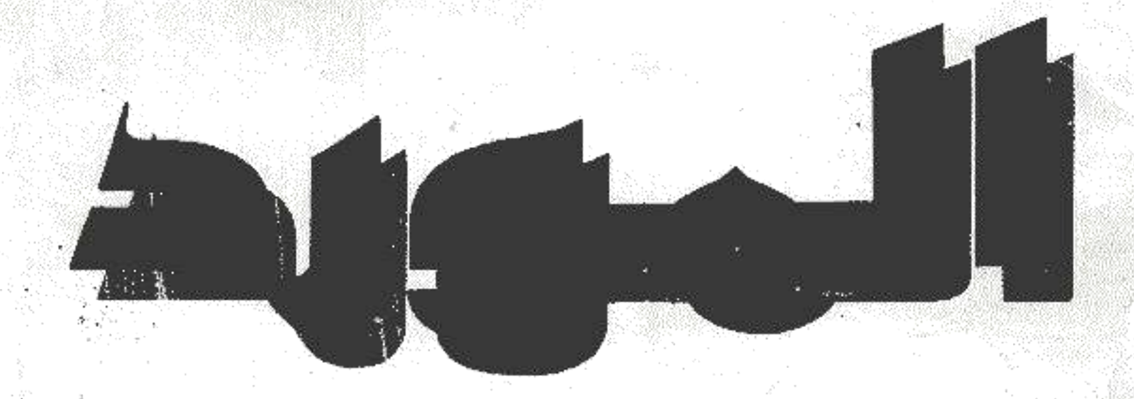
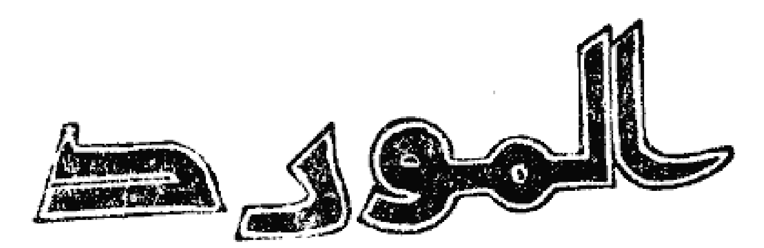


مجلة تراثية نصف سنوية محكمة

تصدرها وزارة الثقافة والاعلام – دار الشؤون الثقافية العامة – جمهورية العراق

المجلد الثاني والعشرون – العدد الاول – ١٤١٤هـ – ١٩٩٤م

هذا العدد كالمالوف في مضامين المورد معقود على الدراسات والنصوص المحققة والاثبات الفهرسية التي تخدم تراثنا العربي – الاسلامي



مجلة تراثية نصف سنوية



تصدرها وزارة الثقافة والاعلام - دار الشؤون الثقافية العامة - بغداد - جمهورية العراق

المجلد الثاني والعشرون - العدد الاول - ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م

السراسين

بقلم الباحث
زهير أحمد القيسي
وزارة الثقافة والاعلام – بغداد

من المشكلات اللغوية والتاريخية التي اعترضت اللغويين والمؤرخين على مدى مئات السنوات دون أن يجدوا لها حلاً، مشكلة السراسين، وما تفرع عن هذه المفردة من مشتقات وتصحيف وتحريف. وقد تتبعنا هذه المشكلة سنين طويلة تعقبنا فيها هذه المفردة حتى صرنا نستطيع القول اننا توصلنا الى حلها بصورة نهائية جازمين، رغم ان كثيراً ممن وصلوا الى هذا الحل لم يقطعوا فيه بالجزم وشابت حلولهم الشكوك والهفوات.. ولسوف نستعرض في هذه المقالة المصادر التي وقعنا عليها والتي تناولت هذا الموضوع.

السراسنة LES SARRAZINS كلمة آتية من الكلمة اللاتينية SARACENUS نقلا عن اليونانية SARAKENOS، وقد ظهر هذا الاصطلاح للمرة الاولى في مؤلفات كتاب القرن الاول الميلادي وقصدوا به البدو الذين كانوا يعيشون منذ أزمان طويلة على أطراف المناطق المزروعة ما بين النهرين ويهددون طرق التجارة أو يحمونها بتكليف من القوتين العظميين يومذاك. ويدخل في التسمية الانباط وأهل الحيرة وتدمر، والكلمة اليونانية تعني ساكني الخيام. ويذكر بعض الباحثين ان أصل الكلمة آت من شرقي SHARQI وهذا محتمل لأن هؤلاء البدو كانوا يعيشون في شرق الامبراطورية الرومانية. وقد كتب كاتب اغريقي من القرن السادس الميلادي بعد سياحة في الجزيرة العربية ان ثمة فرقاً كبيراً ما بين سكان اليمن والسراسنة ولكن لا بد في الأرجح أن نرفض الفكرة التي تعيد أصل الكلمة الى سارة زوجة ابراهيم (ع) لأن العرب لا علاقة لهم بها وهي ام اسحق لا اسماعيل.

والكتاب المسيحيون في اوربة العصور الوسطى كانوا يفرقون في التسمية ما بين العرب فيطلقون على من كان يعيش منهم وراء البحر الابيض المتوسط اسم الاسماعيليين، بينما يطلقون اسم السراسنة على من جاوءهم فاتحين في الاندلس وفي جنوب فرنسة وفي صقلية فكأنهم وهم ورثة الحضارة الرومانية ارادوا أن يعطوا الاسم الذي يحمل معنى السلب والتدمير الذين كانوا في الواقع خليطاً من العرب والبربر كما كان فيهم جماعات من الروم ومن الاسبان ومن اليهود يعاونون الفاتحين، واستعمال كلمة سراسنة عند الغربيين يعني العرب أو المسلمين وتعريب الكلمة بعرب أو مسلمين لا يؤدي معناها الحقيقي النفسي لديهم(١).

لقد كان المسلمون يشكلون مشكلة للعالم المسيحي الغربي. فقد حدث في نظر الاوربيين في مطالع العصور الوسطى تحول في القوى في الاقسام البعيدة من الشرق واعتبر ذلك العالم شعباً هائجاً هم العرب أو السراسنة اجتاح وخرب أراضي واسعة حتى وصلت الكارثة أخيراً الى اسبانية والشواطىء الايطالية وبلاد الغال، وقد لخص (بيد المبجل) قبل وفاته سنة ٧٣٥م الأحداث تلك بقوله: لقد قام الوباء الموجع المتمثل بالسراسنة (المسلمين) بتخريب مملكة الغال.. الخ (كذا)!

كان الاوربيون قد سمعوا بالسراسنة (العرب) قبل الاسلام بزمن طويل، وعندما غير السراسنة دينهم لم يكد أحد يلحظ ذلك في بادىء الأمر. فمثلا يذكر تاريخ للعالم يعود الى القرن الرابع ان السراسنة كانوا يحصلون بقوة القوس على ما يحتاجون اليه في الحياة، ولم يكن هنالك أي حاجة للمزيد من المعلومات عنهم فكان الباحثون وحدهم هم الذين يتجادلون حول اسمهم المشتق من سارة زوجة ابراهيم رغم انهم من سلالة هاجر كما يدل على ذلك اسمهم الثاني AGAREAI وهاجر هي الأمة التي طردت الى الصحراء مع ابنها اسماعيل ... هذا التضارب كان مشكلة ...

لقد برزت صورة الاسلام أثناء الحروب الصليبية، وكان السراسنة بالنسبة للحجاج النصارى الى بيت المقدس مجرد أعداد زائدة لا وجود لها ومجرد كفار تافهين (كذا) وقد أتهم المسلمون بأنهم وثنيون وان « محمداً » هو صنمهم الرئيس وكبير آلهة السراسنة (كذا)

غير أن مثل هذه الأباطيل زالت بعد عدة قرون واستطاع علماء اللاهوت والفلسفة أن ينقلوا الى المسيحية ما كان يذكره ابن سينا عن الحضارة الاسلامية . فمثلا استخدم روجر بيكون (- ١٢٩٢م) من أجل تفخيم منصب البابا ما ذكره ابن سينا عن الحضارة الاسلامية . فمثلا استخدم روجر كان توما الأكويني يستهدف السراسنة بالفعل عندما كتب دراسته الكبيرة (الخلاصة) .

وكان أول من قابله التجار الغربيون بين السراسنة هم المسلمون الذين كانوا يرهبونهم ، وبعد فترة أصبحت التجارة تتطلب اتصالات على المستوى الحكومي فكانت التحالفات التي جرت بين مدن كامبانيا وبين السراسنة تقوم على هذا المستوى .

وفي القتال الذي دار بين الصليبيين والسراسنة في الشرق كانت هناك مناسبات يسلم فيها الصليبيون بأن العدو يعترف بالقيم التي كان الناس يبدون لها تقديراً رفيعاً .

وقد تأثر الامبراطور فردريك الثاني النورماندي من أسرة هوهنشتافن بالمسلمين وأقام في لوسيرا مستعمرة للسراسنة .

وفي القرنين الخامس عشر والسادس عشر سقطت كلمة سراسنة SARACENS تدريجيا من الكلام المتداول بين الناس .

وفي سنة ١٧٠٨ كتب سايمون اوكلي الاستاذ في اوكسفورد كتابه تاريخ السراسنة :

HISTORY OF THE SARACENS

ومجد الشرق الاسلامي ورفعه فوق الغرب(٢) .

لقد عنيت مجلة (لغة العرب) البغدادية سنة ١٩٢٩ بهذا الموضوع فورد فيها مما يتعلق بالسراسنة الالفاظ التالية :

SARRASINS . سراكيوس . سراكندي . سراكنو . شرويون . سرويون . سراسين . سراكسة . شراكسة . سراكنة . سراكة ، سرحيون . شرقيون . عرب مسلمون(٣) .

وهذه المواد أكثرها غفل عن التوقيع ولكن الواضح الأكيد انها كتبت بقلم الأب انستاس ماري الكرملي الحافي العلامة اللغوي ، وهو فيها جميعاً يتبنى وجهة نظر معينة في هذه المفردات . فهو يذكر ان الفرنسيين يسمون العرب الذين دخلوا ديار الاندلس وديارهم بالسراسين ، والانكليز يكتبونها SARCEN والرومان SARACENI واليونانيون SARRAKENOI ، وذهب أغلب الباحثين ان اللفظة محرفة عن (شرقيين) وهو ما نص عليه لغويو الفرنسيين والانكليز والطليان والاسبان ، ومحال أن السرازين أو السراسين تصحيف شرقي ، وفي التوراة تسمى بلاد العرب أو بلاد الشرق وبنو المشرق حيثما وردت باسم (قدم) وأهلها (بنو قدم) وقد ذكر الأب هنري دي لامانس اليسوعي البلجيكي الاصل المستعرب والمستشرق ان SARASINS تصحيف شرقيين وأشار الى ان بطوطه قال : سمعتهم يقولون عند دخولي القسطنطينية سراكنو ... سراكنو(٤) .

وتفصيل كلام ابن بطوطة في ذكر سفره الى القسطنطينية العظمى : ولما وصلنا الباب من أبواب قصر الملك وجدنا به مائة رجل معهم قائد لهم فوق دكانة وسمعتهم يقولون : سراكنو سراكنو ومعناه المسلمون ومنعونا من الدخول(٥) .

وقد تعرض هيرودوت اليوناني ابو التاريخ الى هذا الموضوع وكان ذا نزعة انسانية يختلف بها عن زملائه من الرومان الشرقيين(٦) فتحدث عن قصة ابراهيم الخليل وزوجته سارة العاقر وكيف زوجته بجاريتها أو قينتها هاجر ، ثم طردتها الى صحارى الجزيرة العربية حيث ولدت ابنها اسماعيل في مكة ونبط لها بئر زمزم ثم كيف أنجب اسماعيل اثني عشر ولداً وصار أباً للعرب ، ولهذا قيل لأبناء هاجر التي كانت عبدة أمة قينة لسارة انهم قيون سارة أي عبيدها ، وناقش هيرودوت هذه المسألة ثم لم يقر ببداهة ان العرب عبيد فعلاً ولا قيون بسبب هذا الحدث الاسطوري .

ان معنى كلمة سارة في عبرية التوراة يطابق الكلمة الأكدية شارو وتعني ملك وفي العربية سراة القوم أي سادتهم ورؤساؤهم ، أما هاجر فاسمها مشتق من الهجرة وهاجر معناها قرية ، وفي العربية : الهاجري من لزم الحضر والبناء ومن هنا قيل لبعض المدن العربية مجر وفي لهجات اليمن هكر(٧) .

وتعرض المسعودي لمسالة قيون سارة فقال : ان الروم الى وقتنا هذا - توفي المسعودي سنة ٣٤٦هـ = ٩٥٦م - تسمي العرب (ساراقينوس) وتفسير ذلك طعناً منهم على هاجر وابنها اسماعيل وانها كانت أمة لسارة(٨) . ويرى سيد أمير علي ان كلمة ساراقينوس مشتقة من صحارى أو نازحين أو شرقيين(٩) . وقد أوردت المعاجم الغربية هذه اللفظة بصيغة ساراسين واستعملتها اللغة الانكليزية الوسيطة استعارة من (ساراسينوس) الرومانية المتأخرة وهذه عن ساراكين اليونانية المتأخرة بمعنى بدو بادية الشام ثم أطلقت على العرب بعامة(١٠) .

ان نص كلام المسعودي هو : وأنكر نقفور على الروم تسميتهم العرب باسم ساراقينوس وتفسير ذلك عبيد سارة طعناً منهم على هاجر وابنها اسماعيل وقال تسميتهم عبيد سارة كذب .

وذكر ابن الاثير : ان الروم تسمي العرب(سارقيوس) يعني عبيد سارة(١١).

والمفردة عند ابن الاثير غير مفردة المسعودي وهي الأصوب .

ان هذه الدلائل تؤكد ان كلمة السراسين قد انحدرت من ساراقيون ، أو قيون سارة حسب النطق العربي . غير ان الكرملي واصل اصراره على ان لا علاقة لها بسارة وقيون ، وانها مشتقة من لفظة (سرزين) واصلها سرحة بلفظ واحد السرح وهو مخلاف باليمن واخر مراسي البحرهناك، واعتمد في قوله على كيشرودافلوي اللذين ذكرا أن SARACENI أو SARRCENI جيل من عرب اليمن وكذا معجم جورج پوست للكتاب المقدس الذي ذكر أن ARACENI قطر قديم في جنوب اليمن وهو (سرحة) كان فيه قبيلة من العرب هم بنو جرم الذين فتحوا الفتوحات الجليلة في صدر النصرانية ، أي في صدر العهد المسيحي .

ان كلمة سراسين في اللغتين الاندلسية (الوندالية) والبرتغالية هي SARRACENO ، SARACENI وفي القطلونيـة لغة كاتلونيـة SARRAHI وهي قريبة من سرحة ، وكذلك : SARRXN وفي اللغة البلنسية : SARACE

قال الكرملي : يعسر قبول راي ابن الاثير في نسبتهم الى سارة وربما نسبت الى السراة : الجبل الذي يصل ما بين أقصى اليمن الى الشام ، فلا عجب أن يسمى العرب : سرويين ، إذ يشمل هذا الاسم اليمانيين أي القحطانيين والحجازيين أي العدنانيين أما نسبتهم الى صحراويين فوهم . وقد تحرفت الكلمة الى سراكنة وسراكسة ثم شراكسة أي الشركس والجركس .

قال البطرك بولس مسعود : تسمت دول العرب عموماً بدول السراكسة نسبة الى محل بين مكة ويثرب او في الطريق من مكة الى القدس يدعى سوراقية او مسرقا او سرقا او مسريقا . والشرق هو غير اسم الشراكسة .

لقد اعترض المستشرق كرنكو على راي الكرملي فكتب اليه قائلاً : لا أوافقكم على رايكم في رد أصل اسم (سارسان) الى سرحة ، فقد كان الرومان وبعدهم الأقوام الاوربية جميعاً قد اشتقوا الاسم المستعمل عندهم من اللفظ اليوناني ولاسيما في المائة الرابعة SARAKENOS وان الحرف C اللاتيني كان يلفظ K إذن فالكلمة في الاصل هي SARAKEON ساراقيون(١٢)

لكن هذا الايضاح الجلي جعل الكرملي يصر على رايه فكتب مرة اخرى دون توقيع : ان كلمة السراة التي سمى العرب بها في الاندلس كل سلسلة جبال مثل جبل السراة الذي يصل بين اليمن والشام أخذها الاوربيون والاسبان بصيغة (سييرا) بمعنى جبل(١٢).

وهذه الملاحظة قيمة تفيد في رد أصل سييرا الى العربية غير ان لا علاقة لها بالسراسين ، ولكن الكرملي تمسك بها حتى بعد ملاحظة كرنكو ، فتراه لم يع حقيقة ان الاوربيين ، والمسيحيين بصورة عامة ، يعتبرون التوراة كالانجيل كتاباً واحداً ويسمونهما (الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد) ومن البدهي انهم يسلمون بما جاء فيه عن سارة وأبناء قينتها هاجر ، فكان من الطبيعي أن يطلقوا على العرب والمسلمين بعامة اسم قيون سارة .

اما لفظة الشراكسة أو الشركس أو الچركس من قوميات الاتحاد السوفياتي (السابق) فلا نظن أن لها علاقة بالسراسين ، لأن معنى چركس باللغة الفارسية هو الجندي البارع ، وقد أطلق هذا الاسم على هذا الشعب فهم الچركس والعرب يسمونهم شركس وسركس وسراكس(١٤) ولا ندري إن كان هناك علاقة لاسم سوراقية او مسرقا أو مسريقا وبين اسم سراقة بن عمرو الذي فتح المنطقة التي تقع ضمنها بلاد الشركس في أيام عمر بن الخطاب الخليفة الراشد الثاني ، ولكننا ندري أن هناك علاقة بين سوراقية وبين اسم سوريا الحالي . يقول ديسو ان الصفويين من عرب اليمن القدماء قد سكنوا بلاد الشام وليس في الشام كلها خير من البقعة التي سكنوها وهي الصفا من الرحبة في حرة وادي رجيل في زراعة القمح ، أما المحصول فيجمعه الناس ويخزنونه ثم يتركونه في رعاية الشيخ (سراق) ولي هذا الاقليم ووريث الاله عند الصفويين القدماء .

زاد ديسو هذه الفقرة ايضاحاً وكان قد ذكرها في مقدمة كتابه دون تفسير ، فقال : على السفحين الجنوبي والجنوبي الشرقي لجبل حوران كانت النقوش الاغريقية التي كتبها الانباط تعد كثيرة منذ منتصف القرن الثاني الميلادي أي بعد قليل من تبعية هذه الاصقاع للانبراطورية الرومانية في بلاد العرب ، ولم يبدأ الصفويون في كتابة نصوص اغريقية إلا في القرن الرابع الميلادي في ملح السرار سنة ٣١٥م ... لقد فقدوا حتى أسماء آلهتهم لأننا لو وجدناهم يذكرون اللات ـ الالاهة فهم يذكرونها بأنها اثينا ، وان إلهاً كبيراً من آلهة الصفويين أصبح لا يعرف إلا باسم زوس صفاثينوس أي :

(ZEUS SAFATHENOS) وقد رأينا ان هذه التسمية جاءت بعد تكوين جماعة من الصفويين تسمت باسم (الرحبي) (قبيلة الرحبي) واليوم أصبحت ديانة هذا الاله المحلي زوس يحتفظ بها مذهب الشيخ سراق وهو مذهب له تقديسه وتبجيله في الرحبي ، على ان اشتقاق اسم سراق غامض كل الغموض ويصح أن نقربه

من كلمة عبرية يفسرها الاستاذ فينكلر بلفظ الصحراء ، ومن الكلمة السريانية (شرقو) أي ساكن الصحراء ،وربما اشتقت من الكلمة الاخيرة لفظة سرازين أي المشارقة SARACENES و SARRASINS .

وعلق مترجم ديسو هنا قائلا: ان هذه الكلمة يقال انها تحريف لكلمة شرقيين وقد ظلت علما على المسلمين من القرون الوسطى الى منتصف القرن السادس عشر(١٥).

ان ديسو ومترجمه لم يطلعا على رأي المسعودي ولا ابن الاثير في نسبة سارا سين الى قيون سارة أو انهما لم يأخذا بذلك الرأي . ولكن ارسلان فعل ذلك ، قال : ان الاوربيين كانوا يطلقون لفظ سراسين على الغزاة المسلمين الذين كانوا يهاجمون بلادهم على سواحل البحر(١٦) . واذا كان لفظ سراسين هنا قد أطلق على هؤلاء الغزاة أخذاً من اللفظ العربي الذي منه كلمة سراقين=سارقين وله علاقة بسراق ـالشيخ ، وسوراقيةـ البلد ، فان كلمة جديدة انحدرت منها تلك هي كلمة سرسان . ولما كان الامر كما ذكر كرنكو في ان حرف الكاف K يحل محل حرف C الذي ينطق سيناً مرة وكافاً مرة أخرى في الاوربيات فان كلمة سرسان هذه أصبحت سركان أو كرسان ، ثم نقلها العرب بلغتهم فصارت قرصان أي لصوص البحر . قال تيمور باشا(١٧) ان لفظة قرصان من لفظة كورساير أي لص البحر . وماكورساير في الاصل إلا (سورساي) التي جاءت من سورسان : سرسان ، من السراسنة والسراسين نفسها.

ان الباحث جرجي زيدان كان قد ذكر ان اليونانيين اطلقوا كلمة ساراسين على اهل جزيرة العرب وان SARACEN هو اسم قبيلة من سكان أعالي الجزيرة يظن البعض انها منحوتة من الشرقيين لأن تلك القبيلة كانت تقيم في شرقي جبل السراة(١٨) نقل ذلك عن الباحث الاوربي كلاسير ثم قال : ان من قبائل العرب التي عرفها اليونانيون ولا نعرف لها دولا: الشرقيون=السراسين= SARACEN . والسكون = سكانية = SAKANITAE . وقبيلة الراسين من القبائل التي عرفها اليونانيون في جزيرة سينا ووراءها شرقاً وأصل هذا الاسم تحريف الشرقيين في العربية ، وقال آخرون انه تحريف الصحراويين أو السراقين او الشركاء أو غيرهم ، وقد اشتهر هذا الاسم عند اليونان حتى اطلقوه على سكان جزيرة العرب . انقضى كلام زيدان .

ونقول ان هذا الباحث الجليل قد تخبط كثيراً في فهم المفردة ، وكان بوسعه تجنب ذلك لو أدرك ان السراسين مؤلفة من كلمتين ، إحداهما كلمة قيون ، وان السكون والسكانية عند اليونان تحريف لكلمة اصلها كلمتان إحداهما القيون أيضاً ، وهما تعنيان بلا شك القيون أو القينيين المذكورين في التوراة مع الفرزيين والحثيين وغيرهم من الأقوام وهم بنو القين العرب لاحقاً، وكانوا أي القينيين هم عرب صحراء سيناء أصحاب النبي شعيب أو يثرون حمو موس في أرض مدين ، اما الراسين فغلط أصله سقوط حرف إذ هم السراسين بالذات ! ولا مكان للشركاء على الاطلاق .

ان بني القين أو (القينيون) هم أساس مبحثنا الذي تعرضنا فيه لموضوع السراسين وهو بحث موسوعي ضخم يقع في الف صفحة جاهز ومنجز .

وأضاف زيدان : ان من أخبار السراسين عند اليونان انهم كانوا لا ينفكون عن مهاجمة حدود مصر منذ القدم ، والدولة الرومانية لم تستطع كف أذاهم إلا بمعاهدات تعقدها معهم تدل على ضعفها عن مناوأتهم وشعورها بذلك الضعف .

وقد قصد الكاتب بتلك الحملات ، موجات هجرة قضاعة ، وبنو القين بطن منهم تلك الموجات التي بدأت قبل الاسلام بزمن طويل ودامت الى ما بعد الاسلام منسربة من أعماق الجزيرة العربية الى الشام والعراق ومصر وشمالي افريقية بأسرها حتى الاندلس ، وامتداداً الى افريقية حتى السودان والحبشة ومن بينها هجرات بلي القين الذين صاروا الى بلقين وبلكين والبلاونة والبلوي على نحو فصلناه في كتابنا (القين) باسهاب . وربما كان الدليل على ذلك ما قاله زيدان نفسه :

في أواسط القرن الرابع الميلادي مات ملك السراسين فخلفته امرأته ماوية ، فحلت ماوية نفسها من بنود المعاهدة وحملت برجالها على فلسطين ومصر واستولت على مدينة بطرا حتى أتت برزخ السويس فاضطر الانبراطور فالانس على تجديد المعاهدة بشروط أوفق للمهاجمين ، وكان بين السراسين جماعة كبيرة من المسيحيين ولذلك كان في جملة الشروط أن يكون لهم أسقف خاص بكنيستهم فسلموا لهم أسقفاً اسمه موس وأصبح أولئك العرب بعد هذا حلفاء للمصريين ينصرونهم على أعدائهم(١٩) .

ولسنا ندري الى أي سراسين تحدث اليونانيون الذين أشار اليهم زيدان وأدمج فيه ما يتعلق بالسراسين لدى الرومان ، وإن كنا نعلم صلة المنذر بن ماء السماء ببني القين عن طريق أمه ماوية(٢٠) هذا الاسم الذي تكرر اطلاقه على عدد من الملكات منهن ماوية أم ملوك الحيرة التي طالما نبزت بانها ابنة الصائغ او الحداد اشارة الى انحدارها من بني القين .

وعلى كل حال فان الحديث يتعلق بالأنباط في بطرا

ولا بد ان تكون الرواية منسحبة على شقيلة او صقيلة مدنتهم التي استمدت اسمها مما له علاقة بالقين من صياقلة سيوف وقيون حدادين ، أما اشارته الى سيناء فواضح انها تدل على موضع سكن بني القين أو القينيين الأصليين من جماعة يثرون=شعيب .

ان مقالة الكرملي تستحق مزيداً من العناية، فتحت عنوان (السرحيون أو الشرين) كتب يقول : ان كلمة سراكين وساركيني وساراكيون في الانكليزية والرومانية واليونانية لا يمكن أن يكون الاجانب قد اتخذوها من كلمة شرقيين ، لأنهم لا يعرفون العربية ، والعرب لا يعرفونها ولا ترى في كتبهم ، ولفظ الشرقي يشمل من كان في ديار الشرق الأدنى ولا يدل على المسلم وحده دون غيره وان المسلم يفضل لقب المسلم دون غيره ، فمن المحال أن يكون السرازين أو السراسين تصحيف : شرقي .

وكان زيدان قد أثبت أصل هذه الكلمة(٢١) باعتبارها رأي السواد الاعظم من المستشرقين يراد بها العرب ولكننا رددنا – يقول الكرملي – عليه ذلك بأنه ضعيف لأن اليونان والرومان إذا أسموا العرب لا يسمونهم بلفظة من لغة العرب بل من لغتهم هم ويلوح انه الأقرب الى الصواب لأن بلاد العرب ما برحت معروفة منذ القديم ببلاد المشرق وأهلها بنو قدم أي بنو المشرق والغالب أن يراد بهذا الاقسام الشمالية من جزيرة العرب أما اقسامها الجنوبية فيسمونها أرض الجنوب : تيمن . وفي القاموس: التيمن الجنوب ومنها اليمن . وتدل هذه اللفظة في أصل اللغات الشرقية على اليمين او اليد اليمنى ، والسبب في اطلاقها على بلاد العرب ان من يستقبل المشرق بوجه كان الجنوب الى يمينه ، وكان العبرانيون يقيمون في شمالي جزيرة العرب وهم هناك إذا استقبلوا مشرق الشمس كانت بلاد العرب الى يمينهم فسموها التيمن أي اليمين ثم تشابه المعنيان : اليمين والجنوب . انتهى كلام الهلال. ثم نقرنا عن أصل هذه الكلمة في معاجم لغويي الفرنسيين وفي كتاب حضرة الأب لامنس عن الالفاظ الفرنسية المأخوذة من العرب فالفيناهم جميعاً يقولون مثل هذا القول أي ان كلمة سراسين من تصحيف الكلمة العربية شرقيين . ومع هذا فاننا نستبعد هذا الاشتقاق لأن الاعاجم إذا أرادوا أن يسموا قوماً أجنبيي الجنس اطلقوا عليهم اسماً ماخوذاً عنهم أو من بلادهم أو اسماً يضعونه لهم أخذاً عن لغتهم ، والحال ان العرب لم يتسموا بالشرقيين كما انه يستحيل على الافرنج أن يسموا الناطقين بالضاد باسم غير موجود في لغتهم .

ثم أشار الكرملي الى ان الافرنج كانوا يستعملون سرزين أو سراسين منذ القدم . هنا يميل الكرملي الى الاقتراب من جوهر الموضوع انعطافاً مع رأي ابن الاثير في أن سارقيون منسوبة الى سارة وهي موجودة في لغة الافرنج وعلى طريقة النسبة بلسانهم : سراكينو ، أو سراكينوي اشارة الى أنهم قيون سارة أو عبيدها كما تنسب الى من يكون في خدمة الملك أو السلطان أو القيصر فتقول ملكي أو سلطاني أو قيصري لأن بعض الاسماء قد يضاف اليها أو ينسب اليها لأدنى علاقة بها . وقد ورد في المعجم اليوناني الفرنسي لاوكسفورد SARCA و SARAKA كما جاء في المعجم اللاتيني الفرنسي لكيشر ودافلوي نقلا عن امياس مرشلينس ويونيور أن ال SARRACENI او SARACENENOI جيل من عرب اليمن(٢٢) .

ان تتبعات لفظة سراسين في اللغة اللاتينية أو لغياتها كالبرتغالية ساركينو والاندلثية سارسين والقطلونية ساراهي والبلنثية سارسي تصلنا بأن اليونان الأقدمين والرومان أطلقوا اسم ساركا على قطر من بلاد العرب وان ساركين أو ساركينوي قوم من العرب ولو كانت اللفظة منسوبة الى سارة SARA لقيل SAROI لا ساراكينو . وقد نبه مسعد الى غلط النسبة الى الشركس في كتابه الدر المنظوم . أما ان بعض الكتبة المسيحيين عرّبوا الكلمة بصورة سراكنة فهذا عند ترجمة القديس صفرونيوس بطريك أورشليم كما ذكر المطران اقليمس مسلمي العرب باسم السراكسة(٢٣) .

ان اطلاق اسم ساراقيون=قيون سارا على العرب والمسلمين بصفة خاصة وعلى الشرقيين بصفة عامة أمر اكيد رغم كل اجتهادات الكرملي أو بفضلها فكلما مال الى النقيض اقترب من الحقيقة ! وها ان الباحث الفرنسي الجاد كليبر في حديثه عن الغجر وتاريخهم يؤشر الى ذلك بكل وضوح فيقول ان بعض الغجر وصلوا الى فرنسة فسموا سراسين SARACIN وعوقب بعضهم لأنه اعتنق المسيحية ثم ارتد الى السراسين .

ان تعبير سراسين الذي أطلق على الغجر كان أكثر شيوعاً ولكنه لم يستمر طويلاً فان ذكرى المسلمين الغزاة أخذت تتلاشى من أذهان الفرنسيين ، فمن الطبيعي أن يعيد الى أذهانهم هؤلاء الزوار الجدد وهم يحملون بعضاً من ملامح الساراسين القدماء . وربما كان أصل ساراسين هو : كاراك وهي الكلمة التي ميز بها فلاحو البروفانس الغجر . وفي معجم فورنيه وضع كلمة غجر أمام كلمة كاراياكو ، وكلمة كاراكو أمام كلمة كيتان وخيتانو . وما زال فلاحو بروفانس السفلى يصرون على ان الغجر يسمون كاراياكو . وصارت كاراكو تعني الديك ، وبالانكليزية : كوك ، وبالفرنسية كوكوريكو .

ان كاراكي في الاصل أو كاراغي (قرچي أو قرهچي) أول ما أطلقه الفرس على الغجر ويذكر جول بلوش أن

بعض الغجر في اذربيجان ما زال يعرف باسم كاراكـــي وهي كلمة تركية تعني متسول ، ولعل قرەچي لها علاقــة بكلمة كرج=گرج=جورجيا (ونتذكر هنا ما قلنــاه عــن الچراكسة الشركس الچركس) وفي اللغة الكرديــة يقال للغجر : قرچ .

لقــد استعملت ساراكينـــوس أو ساركاينوس SARAKENOS – في اليونانيــة SARACAENUS في بداية العصور الوسطى لتدل على مواطن من جمهورية شاراسين CHARACEN أو جاراكين CHARAKAIN وهي بلاد تقع في دلتا نهر دجــلة ويعتنق هذا الشــعب الصابئيــة SABEISM أو الزابئية ZABEISM والحق انهم طائفة من هذه الديانة . ثم قام البيزنطيــون واتباعهم من مسيحيي الغرب باطلاق اســـم ساراكاينـــي SARACAENI على مسلمي العصر الوسيــط ثم اختفت كلمة ساراكايني ، وذلك هو السبب الذي جعلنــا نصف الساراكانيوس بكلمة سراسين تلك الكلمــة التي أسيء لفظها ومعناها .

هكذا حصل التطور في كلمة ساراكينوس –ساراسين– كاراك كاسم للغجر في اقليم بروفانس ، وهكذا اختــار سكان البيرانس للغجر اسم كاراكوس من كلمــة كاراك الذي تعرض بدوره للتصحيف بصيغة كاسكاروت ، وقد شرحت هذه الكلمة بالقواميس بأنها صفة للسراســين والمور (المغاربة) وانبـــوهيميين واللصــوص والبائسين والفقراء(٢٤) .

ومن العجيب ان هذه الكلمة ظلت علماً حتى اليــوم على هذا الضرب من الناس ، فنحن نقرأ بقلـم اليونـاني الكاتب كازانتاكيس ان هناك جبلاً في اليونان تدور حوله أحداث خطيرة عن قيامة المسيح لنشر العدل صار مــأوى للمنفيين والمشردين والفقراء والجـائعين والاشـــتراكيين اسمه جبل ساراكينا(٢٥) ونؤكد صلة اسم هذا الموضــع من السراسين أي قيــون ســـــارة سبة وشتيمة لمـن احتشدوا فيه !

أما ما يتعلق بجمهورية شاراسين أو جاراكـــين في دلتا العراق فلا يمكن أن تكون – على رأي غضبان رومـي الصابئي العراقي – إلا (مملكة كرسين) باللغـة الآرامية وهي مملكة كانت في أيام الفرثيين وأصلهــا من المندائيـة [المنداعية] آرامية الصابئة ، كرخسيانة ، قال : كــرخ تعني كرخ الماء بالمعنى الفصيح ، والعامي العراقي اليوم، والسيان الماء العكر بلفظه لدى العامة البغاددة .

وواقع الحال ان كرسين وكراســين وشاراســـين وجاراكين كما أشار فؤاد سفر واحد(٢٦) .

ونعتقد ان اسم قيون سارة هو الاسم الذي أطلــق على الصابئة باعتدادهم ملة خارجة على أصحاب التوراة، شأنهم شأن الاسماعيليين أبناء هاجر أنفسهم .

نتابع مع كليبر : ان بعض الغجر مبيضي النحـاس الاوربيين جاء من تركية ويسمون كاستوراري وهـم مــن عبدة أو من مقدسي (سارة) النبية أو الرئيســة لعشيرتهم التي تعمل في صناعة المعدن والتجارة وهم يحتفون بتمثال لها أسمه ايشتاري أو استارتي ويتلقون بركاته .

ويمكننا بسهولة ربط اسم كاستوراري بموضــوع السراسين ، فالاسم يحتوي بوضوح على مقطع (ستــورا) وستورا هي اشتورا أو اشتار أو عشتار أو عشــتروت ، وفي الفارسية وبعض الاجنبيات ستار وشتار . .الخ وهي هي ذاتها سارة ، لأن اسم سارة يقابل شاريت وشاريات في الفينيقية أي ساراي كما ورد في التوراة ، وفي الاكديـة شاروت وكلها متفقة مع عشتار (الزهرة أو أفروديت أو فينوس أو اناهيد . .الخ) ولما كانت اشتار=عشتار هي ربة الحب والجمال وهي المســؤولة عن شؤون الحـب والزواج والبغاء المقدس في معابد الأمم كلها قبل عصــر التوحيد ، فهذا يعني ان سارة ربما كانت كاهنة عليا من صنف الكاهنات الأكديات المحظور عليهن الزواج أو على الاقل انجاب الاطفــال مثل أم الملك الاكدي ســرجون (سرقون=سرقين) وفي هذه الحالة يحق لها ان تهــدي لزوجها إحدى جواريها لينام معها من أجل انجاب طفــل يعتبر إبناً للكاهنة العليا ولعل هذا يفسر سر قصتها مــع هاجر واسماعيل ولكنها حين ولدت اسحاق تخلت عــن اسماعيل وطالبت بأن يكون ابنها صاحب الحق الاول في الإرث ، ومن هنا أطلقت على اسماعيل ونسلـه اســم قيون سارة أي عبيدها .

وهكذا نفهم كيف أن هؤلاء الكاستوراري كانوا من عبدة سارة كبقية السراسين فهم منهم ولعل عبادتهـم لتمثالها كان خضوعاً منهم لما رموا به دائماً بانهم عبيدها حتى استقر في أعماقهم انها سيدتهم ثم صيروها ربتهـم ودانوا لها بالعبادة والعبودية ، وربما كان ذلك بقية متبقاة من عبادات عشتار ، وان ما قامت به سارة كان على نحو ما هو ما تقوم به عشتار من حماية بنات المعبد والسيادة عليهــن .

وبذلك يكون جبل السراة الذي طالما نسب الكرملي السراسين اليه مرتبطاً تمام الارتباط بأسم ســارة الـذي امتاحت منه العربية كلمة السراة (سراة القوم) وهــو في الأصل أكدي : شارو أي ملك ، لأن الملكية والكهانة العليا أمر واحد .

ولا بد أن يكون الامر على هذا النحو لأن كليبر يضيف ان الغجر يسمون سارة باسم سارة كالي ، ساره كالي ، سارا كالي ، ساركالي وهي مفردة جاءت منها او جاءت هي من ساركاني ... سارساني ثم سرسان وسرسين وسراسين .

وللعقاد في بعض كتبه رأي فهو يقول ان العرب سموا شرقيين SARRCENA عند قوم من أوربة وان الاسم في اصله كان يطلق على قبيلة عربية تسكن الى الشرق من جبل السراة ولعلهم سموا سراتيين نسبة الى الجبل ثم تحرف الاسم بلغات الاوربيين الى سراسين(٢٧) .

وراي العقاد يميل الى رأي الكرملي ان لم يكن هو اخذ منه ، ولم يحاول أن يربط بين السراسين وبين القبيلة التي كانت تسكن الى الشرق من السراة وهي قبيلة بنو القين دون غيرهم . واضاف العقاد ما يدعم رأينا دون أن ينص عليه بالذات : لقد صار يقال في نيجيريا لأمير المؤمنين (ساركن مسلمي) وما قولهم ساركن إلا مأخوذ من شيوع اسم سارسن وسراسن واسراسين(٢٨) .

ان موضوع هجرات قضاعة (والقينيون منهم) الى شمالي افريقية وافريقية السوداء مستحق لوحده مبحثاً ليس هنا موضعه غير اننا لا بد أن نقول ان لفظة ساركن النيجيرية منبثقة من احشاء كلمة سارقين بمعنى السيد العظيم عند شعوب الشرق الاوسط القديمة ، ثم صارت الى سارقن وساركن وهي ذاتها كلمة سارسين ... يقول طرخان : ان شعب الجلف الافريقي يطلق على المقيمين في حوض السنغال اسم سراكول أو ساراكول أي الرجال الحمر غير الصريحين في الصفات الزنجية ، ولديهم كلمة ساركن في دولة مالي الاسلامية أي ملك ، وحتى اليوم يقال (ساركن المسلمين)(٢٩) مما يدعم رأينا في انتقال كلمة قين السامية القديمة الى افريقية .

وما من شك في ان صدور كلمة ساركن وسارسن من افريقية هو الذي جعل الاوربيين يطلقون اسم سيروكو SIROCCO على الريح الجافة المثقلة بالغبار التي تهب من شمالي افريقية عبر البحر الابيض المتوسط الى اوربة الجنوبية ، كما هو الاسم في الانكليزية عن اللغة الايطالية SEROCCO أو SIROCCO

ويرد البعلبكي الكلمة الى شرق دون مناقشة ، وكذلك يقال في الانكليزية SQUIN لنقد ذهبي ايطالي وتركي قديم كما هو الاسم في الايطالية أخذاً عن الفرنسية SEQUIN و ZECHINO (سكوني) اخذاً عن العربية سكة وهي حديدة منقوشة تضرب عليها الدراهم(٣٠) وماسكوني إلا من أصل واحد مع سراسين وسراكين ، وأصلها الاول سك القين أي ما سكه أو صكه القين الحداد ، ولا بد ان لهذه التسمية علاقة بما ذكره سعد بقوله : ان العلاقات التجارية بين طرفي ما يسمى بالحروب الصليبية وصلت من الكثافة خلال تلك الحروب ذاتها الى درجة جعلت الصليبيين يضربون عملة خاصة بهم سميت (سراسين) تحمل رمزاً مسيحياً وكتابة افرنجية على الوجه ، ورمزاً اسلامياً وكتابة عربية على القفا(٣١) .

لقد رغبنا أن نختتم هذا الفصل ـ وهو جزء من كل ـ بما ذكره البروفسور نيكلسن الانكليزي عن التأثير الثقافي العربي الاسلامي في صقلية وبخاصة في عهد فردريك الثاني هوهنشتاوفن (٥١٩هـ=١١٩٤م) حين قال : كان بالامكان أن ترى فلكيين من بغداد بلحاهم الطويلة وجببهم الخفاقة ويهوداً يقبضون رواتب الأمراء مترجمين للكتب العربية ...(٣٢)

وقد علق المترجم على هذه الفقرة بقوله : استعمل نيكلسن هنا لفظة SARACEN نقلاً عن المستشرق شاك ، وقد طال الجدل حول هذه اللفظة وأصلها ، فالمعاجم الافرنجية لم نقطع برأي مقنع ، وتطرق الى اللفظة الأمير شكيب ارسلان في كتابه عن غزوات العرب لأوربة إذ قال ـ والكلام لرينو ـ عن المسلمين بلفظة سارازين التي قيل انها أطلقت على العرب لكونهم سمر الالوان أشبه بالحنطة السمراء التي يقال لها : سارازين. وقيل بل هي محرفة عن [illegible] أي شرقي أو شراقة أي شرقيين بالجمع . وقد ذكر ابن بطوطة في رحلته ان ملك القسطنطينية سأل عنه هل هو سراكنو ؟ أي هل هو مسلم .

وقال رينو في كتابه (غزوات السارازين) الذي ترجم معظمه شكيب ارسلان في كتابه آنف الذكر ص٣٩ : عندنا أغلاط كثيرة منها ما وقع فيه بعض مؤرخي ذلك الوقت مثل تلقيبهم المسلمين بالسارازين وبلفظة بايين PAYENS أي وثنيين .

وفي ص٤٠ : ثم انه كان المجر (المجريون) قد جاءوا من شرقي اوربة وعاثوا في نواحي فرنسة فاختلط على الناس ما عاثه هؤلاء بما عاثه العرب بحيث كثيراً ما كان أولئك القصاص يسمون المجر : سارازين ، ويسمون الفندال : سارازين إ.هـ . ويقول بعضهم ان الكلمة جاءت من سراقين العربية لاشتغالهم بالقرصنة البحرية .

تابع المترجم : على انه يسرنا أن نقول اننا اكتشفنا اصل هذه اللفظة واستطعنا أن نضع حداً لهذه البلبلة وذلك اعتماداً على كتاب التنبيه والاشراف للمسعودي ص١٤٣ إذ جاء فيها : وانكر نقفور على الروم تسميتهم العرب ساراقينوس وتفسير ذلك عبيد سارة طعناً منهم

على هاجر وابنها اسماعيل وانها كانت أمة لسارة وقال: تسميتهم عبيد سارة كذب والروم الى هذا الوقت تسمي العرب ساراقينوس .

وعلى هذا فلفظة SARAKENOS تعني العرب خاصة وربما عم مدلولها فشمل المسلمين عامة وهي من دون شك من أصل يوناني وأقدم ذكر لها في العربية هو في كتاب التنبيه والاشراف للمسعودي المتوفى سنة٣٤٥هـ وأصلح تعريب لها هو (أقنان سارة) لأن لفظ (قن) العربية مماثلة للفظة (كينو) اليونانية وربما اشتقت منها.

ان لفظة ساراكينوس عند المزاهيري تدل على جميع مواطني الجمهورية البحرية التجارية لـ CHARRACENE الواقعة في دلتا دجلة والتي تضم بضع جزر من الخليج كجزيرة خارج وغيرها وكان أهلوها يعتنقون دين الصابئة(٣٣) .

ان خلوصي هو الوحيد الذي اقترب من حقيقة معنى السراسين من بين كل الذين أسهموا في التنقير عنها ، والذين حالت مختلف الحوائل بينهم وبين الاعتراف بدقة أصلها التاريخي . . . ونريد أن نقول في آخر الأواخر اننا الفنا في موضوع (القين) وبهذا العنوان الصغير كتاباً كبيراً ناف على الألف صفحة وما موضوع السراسين إلا بعضه .

الهوامش :

١ – تراث الاسلام – القسم الاول – تصنيف شاخت وبوزورث ترجمة محمد السمهودي تعليق وتحقيق شاكر مصطفى ، مراجعة فؤاد زكريا – الكويت – سلسلة عالم المعرفة – المجلس الوطني للثقافة والفنون والاداب – ١٩٧٨ ص٢٧ (هامش المترجم).

٢ – المصدر السابق – الفصل الاول : الصورة الغربية والدراسات الغربية الاسلامية – العصور الوسطى – الصراع بين عالمين، بقلم ماكسيم رودتسون ص٢٧و٢٨و٢٩و٣١و٣٥و٤١و٤٣و٤٤ و٤٧ و٥٧ و٦٧

٣ – فهارس مجلة لغة العرب : حكمة توماشي – بغداد ١٩٧٢

٤ – مجلة لغة العرب – بغداد – الجزء الرابع السنة السابعة١٩٢٩

٥ – رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار . روجعت وصححت على عدة نسخ صحيحة بمعرفة لجنة من الادباء – المكتبة التجارية الكبرى – مطبعة الاستقامة بالقاهرة سنة ١٣٨٦هـ – ١٩٦٧م الجزء الاول ص٢٢٤

٦ – هيرودوت : كامل مصطفى الشيبي – مجلة آفاق عربية – بغداد، العدد ٣ السنة ٨ ، تشرين الثاني ١٩٨٢

٧ – الاساطير بين المعتقدات القديمة والتوراة : علي الشوك ، لندن ١٩٨٧ والكتاب يعتمد على كتاب غريفز وباتاي بهذا الموضوع.

٨ – التنبيه والاشراف : المسعودي ص١٤٣ (القاهرة ١٩٣٨ ص١٤٣)

٩ – مختصر تاريخ العرب والاسلام : سيد امير علي ، ترجمة رياض رافت ، القاهرة ١٩٣٨ ص٤

١٠ – هيرودوت – المصدر السابق ، عن قاموس ويبستر ص١٤٣

١١ – الكامل في التاريخ : ابن الاثير ١\١١٧

١٢ – مجلة لغة العرب : ف. كرنكو الجزء ٥ السنة ٧

١٣ – مجلة لغة العرب الجزء ٦ السنة ٧ ص٤٢٢

١٤ – قفقاسيا : محمود شاكر – بيروت ١٩٧٢ ص٢٩

١٥ – العرب في سورية قبل الاسلام : رينيه ديسو ، ص٢٨و١٦٣

١٦ – تاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرا وايطاليا : شكيب ارسلان ، بيروت ط٢ – ١٩٦٦

١٧ – معجم الفوائد ونوادر المسائل : احمد تيمور باشا – القاهرة د.ت ص٣١٢ نقلا عن جريدة المقطم (١٠ ذو القعدة ٣٣٧.هـ)

١٨ – العرب قبل الاسلام : جرجي زيدان ، باعتناء حسين مؤنس، القاهرة د.ت ص٤٠

١٩ – المصدر السابق ص١٠٩ « نقلا عن شارب »

٢٠ – الكامل لابن الاثير ١\١٩٥

٢١ – مجلة الهلال : العرب او السرحيون : جرجي زيدان ٦\٢٩٧ (١٩٠٤م)

٢٢ – مجلة لغة العرب ٤\٧ (١٩٢٩)

٢٣ – مختصر تاريخ الكنيسة للومون : اقليمس داود ص٣٢٢

٢٤ – الفجر : جان بول كليبر ترجمة لطفي الخوري – بغداد ١٩٨٢

٢٥ – المسيح يصلب من جديد : نيكوس كازانتزاكيس ، ترجمة شوقي جلال ، القاهرة ١٩٧٠

٢٦ – مجلة سومر العدد ٢٤ سنة ١٩٦٨

٢٧ – حضارة الاسلام – مجموعة مؤلفات عباس محمود العقاد ، المجلد العاشر ، بيروت ١٩٧٨ ص١٤٦

٢٨ – المصدر السابق ص٢٦٣

٢٩ – امبراطورية غانة الاسلامية : ابراهيم طرخان ، القاهرة ١٩٧٠ ص١٩

٣٠ – قاموس المورد : منير البعلبكي ، ص١١٠

٣١ – تاريخ مصر الاجتماعي – الاقتصادي في ضوء النمط الاسيوي للانتاج : احمد صادق سعد ، بيروت ١٩٧٩ ص٢٥٩ نقلا عن:
J.W. THOMPSON : ECONOMIC AND SOCIAL HISTORY OF THE MIDDLE AGES N.Y 1959 V1 P: 403

٣٢ – تاريخ الأدب العباسي : نيكلسن ، ترجمة صفاء خلوصي ، بغداد ١٩٦٧ ص٢٦٢

٣٣ – الحياة اليومية للمسلمين في القرون الوسطى : علي الزاهيري ص٧–٨ اعتمادا على المصدر السابق .